بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ 17 صفر 1443هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي شَرِيعَةِ اللهِ ﷻ يَجِدُ أَنَّهَا قَدْ أَوْلَتْ خُلُقَ الْمُوَاسَاةِ عِنَايَةً خَاصَّةً، حَتَّى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوَلَّى بِنَفْسِهِ مُوَاسَاةَ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ.

فَهَذَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ آذَاهُ قَوْمُهُ وَلَاقَى مِنْهُمُ الصُّدُودَ وَالْإِعْرَاضَ وَاسَاهُ رَبُّهُ ﷻ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أَيْ: اصْبِرْ لِقَضَاءِ رَبِّكَ فِيمَا حَمَّلَكَ مِنْ رِسَالَتِهِ، وَفِيمَا ابْتَلَاكَ بِهِ مِنْ قَوْمِكَ، فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا، نَرَاكَ وَنَحْفَظُكَ، وَنَحُوطُكَ وَنَحْرُسُكَ.

وَحِينَ تَفَطَّرَ قَلْبُهُ ﷺ حُزْنًا عَلَى إِعْرَاضِ قَوْمِهِ عَنِ الِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ وَاسَاهُ اللهُ ﷻ، فَقَالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، أَيْ: لَعَلَّكَ مُهْلِكٌ نَفْسَكَ حُزْنًا بِسَبَبِ تَوَلِّيهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ. فَهَذِهِ الْآيَاتُ وَأَمْثَالُهَا نَزَلَتْ مُوَاسَاةً وَتَطْيِيبًا لِخَاطِرِ نَبِيِّنَا ﷺ، كَمَا وَاسَاهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ مُوَجِّهًا إِيَّاهُ أَلَّا يُحَمِّلَ نَفْسَهُ فَوْقَ طَاقَتِهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَاسِي النَّاسَ، فَكَانَ إِذَا سُئِلَ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّ سَائِلًا، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ - لَمَّا بَدَأَ نُزُولُ الْوَحْيِ عَلَيْهِ لَمَّا قَالَ لَهَا -: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللهِ، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

وَهَذِهِ مُوَاسَاةُ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام لِنَبِيِّ اللهِ لُوطٍ عليه السلام حِينَ خَافَ قَوْمَهُ، حَيْثُ قَالُوا لَهُ: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾.

وَهَذَا يُوسُفُ عليه السلام، مَعَ مَا فَعَلَهُ إِخْوَتُهُ جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ، وَوَاسَاهُمْ فَلَمْ يَبْخَسْهُمْ شَيْئًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾. فَنَفْعُ النَّاسِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، وَقَضَاءُ حَوَائِجِهِمْ شَأْنُ النُّبَلَاءِ الْكُرَمَاءِ، وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَرِيمُ، ابْنُ الْكَرِيمِ، ابْنِ الْكَرِيمِ، ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عليهم السلام».

وَهَذِهِ مُوَاسَاةُ الرَّجُلِ الصَّالِحِ لِكَلِيمِ الرَّحْمَنِ مُوسَى عليه السلام حِينَ خَرَجَ خَائِفًا مِنْ قَوْمِهِ، وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ فِرْعَوْنَ مَعَهُ، فَوَاسَاهُ قَائِلًا: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وَهَذِهِ أُمُّ مُوسَى عليه السلام لَمَّا أَمَرَهَا اللهُ عز وجل أَنْ تُلْقِيَ وَلَدَهَا فِي الْيَمِّ، فَتَفَطَّرَ قَلْبُهَا خَوْفًا عَلَيْهِ، فَوَاسَاهَا اللهُ عز وجل وَطَمْأَنَ فُؤَادَهَا، حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ثُمَّ وَاسَاهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَ رَدَّ وَلَدَهَا إِلَيْهَا رَدًّا جَمِيلًا، حَيْثُ قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وَهَذِهِ مَرْيَمُ حِينَ وَلَدَتِ الْمَسِيحَ عليه السلام بِلَا أَبٍ، قَالَتْ: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى مَنْ يُنَادِيهَا لِيُطَمْئِنَ قَلْبَهَا وَيُوَاسِيهَا، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

وَعَلَى هَذَا النَّهْجِ الْقَوِيمِ فِي الْمُوَاسَاةِ سَارَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، وَالصَّالِحُونَ رَحِمَهُمُ اللهُ، فَهَذَا عُمَرُ رضي الله عنه يَتَعَاهَدُ الْأَرَامِلَ وَيُوَاسِيهِمْ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رحمه الله فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ»: وَكَانَ عُمَرُ يَتَعَاهَدُ الْأَرَامِلَ، يَسْتَقِي لَهُنَّ الْمَاءَ بِاللَّيْلِ، وَرَآهُ طَلْحَةُ بِاللَّيْلِ يَدْخُلُ بَيْتَ امْرَأَةٍ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا طَلْحَةُ نَهَارًا، فَإِذَا هِيَ عَجُوزٌ عَمْيَاءُ مُقْعَدَةٌ، فَسَأَلَهَا: مَا يَصْنَعُ هَذَا الرَّجُلُ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: هَذَا مُذْ كَذَا وَكَذَا يَتَعَاهَدُنِي يَأْتِينِي بِمَا يُصْلِحُنِي، وَيُخْرِجُ عَنِّي الْأَذَى، فَقَالَ طَلْحَةُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ طَلْحَةُ، عَثَرَاتِ عُمَرَ تَتَبَّعُ؟!

وَكَانَ أَبُو وَائِلٍ يَطُوفُ عَلَى نِسَاءِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِمْ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَشْتَرِي لَهُنَّ حَوَائِجَهُنَّ وَمَا يُصْلِحُهُنَّ. اهـ

لَقَدْ أَثْنَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْأَشْعَرِيِّينَ لِتَحَلِّيهِمْ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ [أَيْ: فَنَى زَادُهُمْ]، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ، بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ».

وَلَقَدْ حَثَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى التَّحَلِّي بِهَذَا الْخُلُقِ النَّبِيلِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ صُوَرَ الْمُوَاسَاةِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: الْمُوَاسَاةُ بِالْمَالِ، وَالْمُوَاسَاةُ بِالنَّصِيحَةِ، وَالْمُوَاسَاةُ بِالْمُشَارَكَةِ الْوُجْدَانِيَّةِ، وَالْمُوَاسَاةُ بِالدُّعَاءِ، وَمِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ: السَّعْيُ فِي حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ: مِنْ إِطْعَامٍ لِلْجَائِعِ، وَكِسْوَةٍ لِلْعَارِي، وَعِيَادَةٍ لِلْمَرِيضِ، وَتَعْلِيمٍ لِلْجَاهِلِ، وَإِنْظَارٍ لِلْمُعْسِرِ، وَإِعَانَةٍ لِلْعَاجِزِ، وَإِسْعَافٍ لِلْمُنْقَطِعِ، وَكَفَالَةٍ لِلْيَتِيمِ، وَتَفْرِيجٍ لِلْهَمِّ، وَشَفَاعَةٍ فِي الْخَيْرِ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»، وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ»، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا

مِنْهُمْ، فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ». قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْأَمْثَالِ وَالْحِكَمِ»: اصْنَعِ الْخَيْرَ عِنْدَ إِمْكَانِهِ، يَبْقَ لَكَ حَمْدُهُ عِنْدَ زَوَالِهِ، وَأَحْسِنْ وَالدَّوْلَةُ لَكَ، يُحْسَنْ لَكَ وَالدَّوْلَةُ عَلَيْكَ، وَاجْعَلْ زَمَانَ رَخَائِكَ عُدَّةً لِزَمَانِ بَلَائِكَ. اهـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْمُوَاسَاةَ لَهَا فَضَائِلُ كَثِيرَةٌ، وَمِنْهَا:

الْأَوَّلُ: الْمُوَاسَاةُ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

الثَّانِي: مُوَاسَاةُ الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ قِيَامَ اللَّيْلِ وَصَوْمَ النَّهَارِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ».

الثَّالِثُ: الْمُوَاسَاةُ سَبَبٌ فِي الْمَغْفِرَةِ لِأَصْحَابِ الْكَبَائِرِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ [يَعْنِي: بِئْرًا]، قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ».

الرَّابِعُ: الْمُوَاسَاةُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ: «قَضَاءِ الْحَوَائِجِ»، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ تُدْخِلَ عَلَى أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ سُرُورًا، أَوْ تَقْضِيَ لَهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْعِمَهُ خُبْزًا».